ISSN: 2090 – 0449 Online
Type of License: CC BY-NC-ND
Impact Factor for Arabic Scientific Journals, 2016.

دراسات

التنظيم الاجتماعي والديني لبلاد المغرب
قبيل الفتوحات العربية الإسلامية

د. أحمد العثماني

كاتب وباحث في تاريخ المغرب
أستاذ الثانوي التأهيلي
المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تتفق المصادر التاريخية على أن الخليفة عمر بن الخطاب عندما وصله خبر فتح برقة وطرابلس، أرسل أمرًا إلى عمر بن العاص لوقف عملية الفتوحات عند ذلك الحد! هذه الدراسة تبحث في الأسباب التي دفعت الخليفة إلى إصدار هذا القرار من خلال فحص النصوص المصدرية التي أرخت للواقعة؛ غير أننا سنتوقف عند جوانبها الجغرافية والبشرية (الجهل بالمنطقة وأحوالها)؛ والتنظيم الاجتماعي الذي عرفته المنطقة، على أن نفرد للتنظيم السياسي دراسة خاصة نظرًا لقيمته الكبيرة. فالجهل بالمنطقة شمل الجغرافيا الطبيعية كما البشرية، لذلك كان لابد من التوقف عند حدودها التي ترسمها المصادر التاريخية والجغرافيا، وبالتالي تحديد التطور التاريخي لمفهوم بلاد المغرب بغية فهم المجال الذي تحركت فيه الجيوش الإسلامية. قبل الانتقال للحديث عن التنظيم الاجتماعي مع التركيز على ساكنة المنطقة وبالذات البربر الذين يعتبرون السكان الأصليين لها (البحث في أصولهم وتنظيماتهم القبلية من خلال المصادر التاريخية والأبحاث الحديثة) وأثناء البحث في ذلك كان لابد من إزالة الالتباس الحاصل حول أصل التسمية/ البربر في المصادر العربية للتأكيد -إن كان الأمر يحتاج إلى ذلك فعلاً- بأن المصطلح بعيد كل البعد عن المعنى القدحي أو التحقيري. أخيرًا؛ تم تخصيص جزء من هذه الدراسة للحديث عن الديانات الوثنية والتوحيدية التي انتشرت في المنطقة، خاصةً المسيحية التي لعبت دورًا هامًا في تاريخ شمال أفريقيا قبل الإسلام، وكانت وراء مجموعة من الأحداث الدموية وأثرت بشكل كبير على الأوضاع السياسية بها إلى حدود دخول الجيوش الإسلامية إليها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٧ أغسطس ٢٠١٤
تاريخ قبـول النشـر: ٨ نوفمبر ٢٠١٤

كلمات مفتاحية:

العرب، البيزنطيون، الأفارقة، البربر، تاريخ إفريقية

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحمد العثماني. "التنظيم الاجتماعي والديني لبلاد المغرب قبيل الفتوحات العربية الإسلامية".- دورية كان التاريخية.- العدد الثاني والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٦. ص ١٠ – ١٨.

مُقَدِّمَة

بعد دخولهم إلى الإسكندرية سنة٢١هـ وجد الفاتحون العرب بقيادة عمرو بن العاص أنفسهم أمام مجال جغرافي ممتد، لم يسبق أن تعامل معه العرب سواء في الجاهلية أو في بدايات الإسلام ، ولم تكن لهم أدنى دراية بأوضاعه السياسية والاجتماعية والدينية والاقتصادية...إنه بلاد المغرب الذي يمتد من غرب الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي. وهذا الجهل بالمنطقة هو الذي دفع الخليفة عمر بن الخطاب (١٣ - ٢٣هـ) إلى إرسال أمره إلى قائده عمرو بن العاص بإيقاف عملية الفتوحات هناك، إلى حين امتلاك المعلومات الكافية عن الأوضاع السياسية والاجتماعية والدينية ببلاد المغرب، ثم بعد ذلك اتخاذ القرار الملائم بشأن استئناف عملية الفتوحات هناك، وهذا ما حدث لاحقا في خلافة عثمان بن عفان (ﷺ) (٢٤ - ٣٥هـ). وسيكون هدف هذه الدراسة توضيح تلك المعطيات التي كانت مجهولة لدى الفاتحين، والمتعلقة بالتنظيم الاجتماعي والديني الذي كان سائدا في المنطقة قبيل الفتوحات، وهذا ما سيساعدنا على تحقيق فهم موضوعي للتعقيدات والصعوبات التي واجهت عملية الفتح وجعلتها تتأخر سبعين سنة، لكن قبل ذلك لابد من الوقوف عند التطور

التاريخي لمصطلح بلاد المغرب، كما وضحتها المصادر التاريخية والجغرافية العربية.

المبحث الأول:

التطور التاريخي لمصطلح بلاد المغرب

يحيل مصطلح المغرب على منطقة شمال إفريقيا وهي تضم حاليًا ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا، وهذا المصطلح ينتمي حصرًا إلى مجال التداول العربي، حيث ظهر إلى الوجود إبان الفتوحات العربية الإسلامية، ولم يكن معروفًا قبل ذلك؛ لكن تاريخ اعتماد هذا المصطلح في مجال التداول العربي لم تتم دراسته بعد بالعمق الكافي، رغم أن الأستاذين "غوردو" و"القبلي" سبق أن نبها إلى أهمية الموضوع[*]. لذلك فإن هذه الدراسة تبتغي تطوير النقاش حول النقط التي تظل عالقة حول الموضوع من خلال الإجابة عن سؤالين هما: متى تم اعتماد مصطلح بلاد المغرب في مجال التداول العربي؟ وكيف تطور تاريخيًا؟

عرفت المنطقة في المصادر العربية التاريخية والجغرافية بلفظتين أساسيتين، هما إفريقية والمغرب. أما إفريقية فلفظة موروثة عرفت بها المنطقة منذ القدم، «فقد أطلق الفينيقيون لفظ أفري (Aphri) على أهل البلاد الذين كانوا يسكنون حول مدينتهم "طاقة Utica" "المدينة القديمة" وعاصمتهم قرطاجنة "المدينة الحديثة"، وعنهم أخذه اليونان، فأطلقوه على أهل البلاد الأصليين الذين يسكنون المغرب من حدود مصر إلى المحيط، ومن ثم سميت هذه المنطقة أفريكا أي بلاد الأفري».[١] وأخذ الرومان الاسم عن الفينيقيين فاستعملوه للدلالة على المنطقة؛ لكن أمام اتساع المجال الجغرافي المسيطر عليه، عمل الرومان على تقسيم المنطقة إلى عدة مقاطعات وبتسميات مختلفة، اختص لفظ إفريقية بمنطقة محددة هي إفريقيا البروفنصالية، إلى جانب نوميديا وموريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية.[٢] إلا أن اسم إفريقية ظل -رغم التقسيمات الإدارية- عاما يشمل المنطقة ككل «فكانت إفريقية البيزنطية تشمل كل ما دخل في طاعة الروم من هذه القارة، من برقة إلى طنجة».[٣]

أما عند العرب، فإن مصطلح إفريقية عرف تطورًا تاريخيًا، جمع ما بين الشمول والتحديد. ففي بداية تعرفهم عليها كان المصطلح يعبر عن المنطقة ككل، بمعنى أن المنطقة كانت معروفة لديهم تحت اسم إفريقية، وتورد المصادر أن عمرو بن العاص عندما أنهى فتح طرابلس بعث رسالة إلى الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ (13هـ/٢٣هـ) يخبره بقوله «أنا قد بلغنا اطرابلس، وبينها وبين إفريقية تسعة أيام فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لنا في غزوها فعل».[٤] وما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن المقصود بإفريقية في النص السابق، المنطقة ككل، قول عبدالله بن الزبير نفسه، أثناء حديثه عن حملة عبدالله بن سعد: «أغزانا عثمان بن عفان إفريقية، وكان بها بطريقا سلطانه من اطرابلس إلى طنجة».[٥]

وهو المعنى نفسه الذي ظل سائدا لفترة طويلة، حيث نجد مصادر تاريخية متعددة تستعمله مثل ابن حبيب[٦] وابن خياط.[٧] وكما حدث مع الرومان، وأمام اتساع المجال المفتوح والذي وصل إلى جنوب أوربا، حدث نوع من التحديد والتخصيص للمصطلح، فلم يعد يعبر عن المنطقة ككل وإنما عن جزء منها «فاقتصر اسم إفريقية على ما يلي مصر غربا حتى بجاية، أي أنه ضم تونس ونصف مقاطعة قسنطينة الحالية».[٨] نتيجة لهذا التخصيص تم استحداث لفظة عربية خالصة، لم تكن متداولة في السابق، تحيل على المنطقة بشكل عام، فأطلق مصطلح المغرب على الجناح الغربي من دار الإسلام أو مغرب الشمس.

والسؤال المثار هنا، متى ظهر هذا المصطلح؟ وهل يمكن تحديد الفترة التاريخية التي ظهر فيها بشكل تقريبي؟ يجب أن نعترف أنه من الصعب الإجابة عن هذا الإشكال، خاصة أن هذا المصطلح ظهر مع بداية التدوين في التاريخ، حيث نجده عند ابن خياط وكذلك البلاذري، والطبري، وابن عبد الحكم.[٩] وعلى الرغم من ذلك يمكن تحديد هذه الفترة -وبشكل تقريبي- من خلال استقراء النصوص، خاصة تلك التي أوردت الرسائل والحوارات التي كانت تجري بين القادة والخلفاء.

يذكر ابن خياط أن الخليفة معاوية بن أبي سفيان (٤١ -٦١هـ) بعث إلى عامله بالمدينة مروان ابن الحكم قائلاً: «أن ابعث عبدالملك بن مروان على بعث المدينة إلى بلاد المغرب».[١٠] تُعَدّ هذه الرسالة أقدم مصدر يذكر فيه مصطلح المغرب على لسان الخليفة معاوية نفسه، غير أنه لا يمكن الاعتماد عليها لغياب ما يعضدها من رسائل أخرى، ولأن الفترة التي تحدثت عنها كانت فيها المنطقة غير خاضعة للخلافة العربية الإسلامية، وكانت محاولات الدخول إليها ما زالت في بداياتها، نضيف إلى ذلك أن معلومات العرب عن المنطقة كانت محدودة، نتيجة لغياب أي تواصل كبير بينهما في السابق، وأن أقصى ما عرفوه كونها تابعة للبيزنطيين، ومن ثمة فإن الاسم الذي كان رائجًا لديهم هو الاسم نفسه الذي كان معتمدًا لدى البيزنطيين وهو "إفريقية" كما رأينا سابقًا.

بالإضافة إلى أن مصطلح المغرب جاء تعبيرًا عربيًا خالصًا عن المجال الغربي لدار الإسلام، وهو الشيء الذي لم يتحقق في عهد معاوية، وبذلك نستنتج أن لفظة المغرب التي أوردها ابن خياط في هذه الرسالة من وضعه وليست من قول معاوية ابن أبي سفيان. أما أهم إشارة يمكنها أن تساعدنا في الإجابة عن هذا الإشكال، فقد وردت عند كل من الرقيق القيرواني وابن عذاري، أثناء حديثهما عن ولاة المغرب في الفترة الأموية. فالرقيق القيرواني أثناء حديثه عن الوالي عبيد الله بن الحبحاب، وعن ما واجهه من ثورات الخوارج، يورد لنا نص الحوار الذي دار بين هشام بن عبدالملك (١٠٥هـ/١٢٥هـ) وحاشيته، مستفسرًا عن الأحداث، فيقول «.. واختلفت الأمور على عبيد الله بن الحبحاب واجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم وبلغ ذلك

هشام بن عبدالملك وقال: «أقتل أولئك الرجال الذين كانوا يفدون علينا من المغرب أصحاب الغنائم قيل نعم يا أمير المؤمنين».(١١)

أما ابن عذاري، فيورد لنا نصًا فيه إشارة إلى المغرب متقدمًا زمنيًا عن إشارة الرقيق القيرواني، فيذكر أن الخليفة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ) عندما أراد تعيين وال على المغرب، قام باستشارة "رجاء بن حيوة"، فأشار عليه بمحمد بن يزيد، مولى قريش، فقام باستدعائه وتكليفه ناصحًا إياه قائلاً: «يا محمد بن يزيد! اتق الله وحده لا شريك له! وقم فيما وليتك بالحق والعدل! وقد وليتك إفريقية والمغرب كله».(١٢) يمكن أن نؤكد من خلال النصين السابقين أن مصطلح المغرب أصبح متداولاً مباشرة بعد انتهاء عملية الفتح؛ فالنص يذكر لنا فترة الخليفة سليمان، وقد جاء إلى الخلافة مباشرة بعد وفاة أخيه الوليد، الذي في عهده تم الفتح الكامل الشامل للمغرب والأندلس، فكان لابد من استحداث مصطلح يعبر عن هذا الوضع الجديد. وبذلك نخلص إلى القول: إنه بدأ تداول مصطلح المغرب في أواخر القرن الأول الهجري باعتباره الجناح الغربي لدار الإسلام، آخذا في الانتشار إلى أن حل محل مصطلح "إفريقية"، الذي أصبح يعبر عن جزء من بلاد المغرب فقط.

المبحث الثاني:

في أصل السكان وتنظيمهم الاجتماعي

١/٢- في أصل السكان:

يمكن تصنيف السكان الذين كانوا يقطنون المنطقة أثناء الفتح، إلى ثلاثة أصناف:

البيزنطيون: كانت لهم الغلبة السياسية في المنطقة، وهم امتداد طبيعي للرومان، واستوطن عدد منهم المنطقة، وخاصةً في المناطق الساحلية والمدن الإدارية، وكانوا أول من تواجه معهم العرب.

الأفارقة: كانوا بدورهم يقطنون في المراكز الساحلية، وهم في الغالب أخلاط من الروم وبقايا الفنيقيين والبربر ممَنْ تزاوجوا، وإن كان جوتييه يرى أنهم فينيقيون بالأساس، حافظوا على هويتهم الخاصة على الرغم من الأحداث المؤسفة التي تعرضوا لها، وبالأخص اللغة الفينيقية، التي استمرت في الوجود بشكل كبير حتى في أيام أوغسطين الذي سجل ذلك في رسائله وكتاباته،(١٣) وأكد بروكوب كذلك أن «أهالي المنطقة لا زالوا يتكلمون البونيقية».(١٤) ومن المحتمل استمرار هذه اللغة في الوجود حتى زمن الإسلام حيث نجد البكري عند حديثه عن مدينة سرت، يذكر لغة أهل المدينة بأنها "ليست بعربي ولا عجمي ولا بربري ولا يعرفه غيرهم»،(١٥) فلم لا تكون اللغة المقصودة هنا هي الفنيقية؟ ويبقى هذا مجرد تساؤل مفتوح إلى أن تظهر دلائل جديدة تنفي أو تثبت ذلك.

البربر: هم السكان الأصليون للمنطقة، عرفوا بعدة أسماء منها: الليبيون والموريون، والملاحظ أن هذه الأسماء كلها خارجية أطلقها عليهم قوم آخرون، ولم يعرفوا باسم خاص أطلقوه على أنفسهم، وإنما اكتفوا بالتعيين القبلي، أي الانتساب إلى القبيلة، دون تجاوز ذلك إلى اسم علم جامع لشعب له خصائص مشتركة.

ولم تكن لفظة البربر معروفة عند العرب، قبل اتصالهم بالمغرب، فهي لفظة يونانية (Berbaroi)،(١٦) ومنها انتقلت إلى الرومان حيث استعملوها لتعيين كل خارج عن الحضارة الرومانية، وخاصةً سكان شمال إفريقيا(١٧) وبقي هذا اللفظ مستعملاً أيام البيزنطيين، فيبدو أن العرب قد وجدوا هذا اللفظ يطلق بصفة عامة على سكان المنطقة، وأمام اتساع استعماله حاول الكتاب إعطاء تفسير لهذه اللفظة من خلال المعجم العربي، مبتعدين كل البعد عن المعنى الاصطلاحي التحقيري، الذي كان سائدًا في المعجم اليوناني اللاتيني.

هناك روايتان أساسيتان حاولتا تفسير مصطلح "البربر": - **الأولى:** اعتمدت على النسب، حيث افترضت وجود جد أعلى تنحدر منه جميع قبائل البربر، ومنه اشتق الاسم الجامع وهو بر بن قيس بن عيلان.(١٨) - **الثانية:** بمعنى اللغة الغامضة وغير المفهومة، وتنسبها المصادر إلى شخصية تاريخية اسمه افريقش من اليمن، دخل إلى المغرب غازيًا، فلما التقى ببعض سكانه «وسمع رطانتهم ووعى اختلافها وتنوعها تعجب من ذلك، وقال ما أكثر بربرتكم فسموا بالبربر».(١٩)

أما ليون الإفريقي فيورد تفسيرًا آخر لمعنى البربر، ودائمًا من خلال حكاية إفريقش، فعندما «انهزم هذا الأخير أمام الأشوريين أو الأتيوسيين هرب إلى مصر ولما وجد نفسه مطاردًا عاجزًا عن مقاومة العدو، استشار قومه أي سبيل يسلكونه للنجاة، فأجابوه صارخين البربر أي إلى الصحراء».(٢٠) هكذا فسرت معظم المصادر العربية لفظة البربر مبتعدة عن المعنى التحقيري المقترن بها منذ الإغريق والرومان،(٢١) وعرف سكان المغرب بهذه اللفظة، والذين، كما قلت سابقًا، لم يسموا أنفسهم بهذه التسمية أو بأخرى، إنما اكتفوا بأسماء قبائلهم، بمعنى أن هذه التسمية خارجية أطلقها عليهم أناس آخرون لتمييزهم عن بقية الشعوب.

أما عن أصل البربر فقد اختلف الدارسون حول أصلهم، ولم يتم الاتفاق حول رأي واحد في أغلب فترات دراسته إذ لازال الجدل قائما، محط أخذ ورد بين المدارس الفكرية المعاصرة.

الرأي الأول: يُعَدّ هيرودوت أول مَنْ أشار إلى ساكنة المغرب حيث أكد أن المنطقة كان يقطنها الليبيون، الذين ينقسمون بدورهم إلى فرقتين،فرقة "بدوية" وفرقة "حضرية".(٢٢) أما عن أصلهم «فلا يتردد في نسبتهم إلى الطروادين الذين طردوا من طروادة بعد أن حطمها التحالف الإغريقي، ما بين القرنين ١١ و١٢ ق م».(٢٣)

أما **الرأي الثاني:** فقد جاء به المؤرخ الروماني سالوست (salluste)، الذي أكد فيه على أن الليبيين والجيتوليين أول من سكن المنطقة، فاختلط بهم فيما بعد الميديون والأرمنيون والفرس، الذين كانوا جندًا في جيش القائد هيركول (Hercul) عندما دخل إسبانيا، فجاء أولئك إلى المغرب فاختلطوا مع ساكنته الأوائل، فاختلط الميديون والأرمنيون بالليبيين أما الفرس فقد اختلطوا بالجيتوليين.(٢٤)

الرأي الثالث: أتى به المؤرخ بروكوب (Procope) الذي عاش في الفترة البيزنطية، حيث كان مرافقًا للقائد "بيليزار"(Belisair)، الذي

هزم الونداليين وأعاد المغرب إلى السيطرة البيزنطية، وقد أكد فيه على الأصل الكنعاني الفلسطيني للبربر، فبعد أن احتل العبرانيون فلسطين هرب هؤلاء إلى مصر، غير أنهم سرعان ما تركوها لكونها آهلة بالسكان، ثم اتجهوا إلى المغرب وانتشروا فيه إلى حدود جبل طارق.[٢٥]

أما في المصادر العربية التي عالجت هذه الإشكالية، فنجد رأيين أساسيين:

الرأي الأول: تتحدث عن الأصل الكنعاني الفلسطيني، حيث هاجر الكنعانيون إلى المغرب بعد هزيمتهم أمام العبرانيين. فنجد ابن عبد الحكم يؤكد على أن أصل البربر من فلسطين حيث يقول: «وكان ملكهم جالوت فلما قتله داود عليه السلام خرج البربر متوجهين إلى المغرب حتى انتهوا إلى لوبية ومراقية، وهما كورتان من كور مصر الغربية، فتفرقوا هناك، فتقدمت زناتة ومغيلة إلى المغرب وسكنوا الجبال، وتقدمت لواتة فسكنت أرض انطابلس وهي برقة، وتفرقت في هذا المغرب وانتشروا فيه حتى بلغوا السوس».[٢٦]

وتذهب في هذا الاتجاه أغلب الروايات التي تحدثت عن هذا الأصل، فالبكري يذكر «أن ديار البربر كانت فلسطين من بلاد الشام، وكان ملكهم جالوت، وهذا الاسم سمة لسائر ملوكهم، إلى أن قتل داود جالوت، فساروا إلى بلاد المغرب».[٢٧] ويرى ياقوت الحموي، «أنهم من الجبابرة الذين قاتلهم داود وطالوت، وكانت منازلهم على الدهر ناحية فلسطين، وهم أهل عمود، فلما أخرجوا من أرض فلسطين أتوا المغرب فتناسلوا به وأقاموا في جباله».[٢٨]

أما ابن خلدون -الذي يُعَدّ أهم من درس هذه الإشكالية في تلك الفترة- فبعد أن درس جميع الآراء التي ناقشت هذا الموضوع، خلص إلى القول إنهم «من ولد كنعان بن حام.. وأن اسم أبيهم مازيغ وإخوتهم أركيش وفلسطين إخوانهم بنو كسلوحيم بن مصرايبم بن حام، وملكهم جالوت سمة معروفة له، وكانت بين فلسطين هؤلاء وبين بني إسرائيل بالشام حروب مذكورة، وكان بنو كنعان وواكريكيش شيعا لفلسطين، فلا يقعن في وهمك غير هذا، فهو الصحيح الذي لا يعدل عنه».[٢٩]

تكمن أهمية الرأي الأخير في اتفاقه مع ما أورده بروكوب (Procope)، حيث يطرح السؤال هل قرأ هؤلاء رأي (Procope)؟ أم ظهر وانتشر عند سكان المغرب وعنهم أخذ المؤرخون العرب هذه الرواية؟ ليس لدينا دليل حول اطلاع العرب على بروكوب(Procope)، وليس هناك إشارة تفيد ذلك في ما هو معروف من مصادر، مما يجعلنا نستبعد ذلك، والأرجح أن هذا الرأي كان معروفا ومنتشرا لدى سكان المنطقة بشكل كبير، ونقله عنهم بروكوب (Procope) والمؤرخون العرب. والمهم في كل ذلك، أن هذا الاتفاق يجب أن يؤخذ بالاعتبار، وأن يدرس جيدًا بدل دمغه "بالأسطورة"، خصوصا أن الفينيقيين قد جاؤوا إلى المنطقة قادمين إليها من فلسطين، مما يجعلنا نتساءل ألم يكن الفينيقيون على علم مسبق بالمنطقة، وأنهم كانوا على اتصال بها قبل مجيئهم إليها؟ ومن ثمة ألم تعرف المنطقة هجرات قادمة من فلسطين قبل الفينيقيين؟

الرأي الثاني: ترى أن أصل البربر من اليمن هاجروا إلى المغرب في الأزمنة الغابرة، و قد كان هذا الرأي منتشرا بشكل كبير في المنطقة، إذ ذكر ابن حزم أن طوائف من البربر «ادعت إلى اليمن، إلى حمير، وبعضهم إلى بر بن قيس عيلان».[٣٠] أما البكري، فقد فصل في الأمر وأورد لنا في نصه، الذي عالج فيه هذا الإشكال، رأي البربر حول أصلهم، حيث «زعموا أنهم من أوزاع من اليمن تفرقوا عندما كان من سيل العرم ما كان، وقيل إن أبرهة ذا المنار تخلفهم بالمغرب، ومنهم من رأى أنهم من قيس عيلان.. قال الكندي: إنهم من ولد بر بن قيس بن عيلان».[٣١]

ويذهب هانئ بن بكور الضريسي الاتجاه نفسه، وكذا سابق بن سليمان المطماطي، وكهلان بن أبي لؤي، وأيوب بن أبي يزيد، وغيرهم من نسابة البربر حيث يعتبرون البربر فرقتين وهما البرانس والبتر، "فالبتر من ولد بر بن قيس بن عيلان والبرانس بنو برنس بن سفجو بن أبزج بن جناح بن واليل بن شراط بن تام بن دويم بن دام بن مازيغ بن كنعان بن حام وهذا هو الذي يعتمده نسابة البربر».[٣٢] ولا يخرج ابن أبي زرع عن هذا الرأي، حيث خص به قبائل زناتة، التي تعتبر فرعا من البتر، كما بين ذلك ابن خلدون. فقبل أن يبدأ بالحديث عن قيام دولة بني مرين بدأ بإشكالية نسبهم، فذكر أن بني مرين فخذ من زناتة وجدهم الأعلى هو «مادغيس الأبتر، بن بر بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان فهم عرب الأصل».[٣٣]

وقد كان هذا الرأي معروفًا لدى الزناتيين والعرب مبكرًا، حسب ابن أبي زرع ، أي منذ اللقاء بين الطرفين، خاصة مع حسان بن النعمان، الذي كان أول مَنْ ذكر بعروبة قبائل زناتة، أثناء محاولته إقناعهم بالإسلام، فلجأ إلى التذكير بوحدة الأصل، وأنه لا يجوز التقاتل بين الإخوان، قائلاً لهم في صيغة تساؤل استنكاري، «يا معشر زناتة أنتم إخواننا في النسب، فلم تخالفونا وتعينون علينا أعداءنا؟ أليس أبوكم بر ابن قيس بن عيلان؟ قالوا بلى! ولكنكم معشر العرب تنكرون لنا ذلك وتدفعوننا عنه»،[٣٤] ولتجاوز ذلك كتب لهم حسان بن النعمان إقرارًا شهد فيه شيوخ العرب وشيوخ زناتة، على أنهم إخوانهم في النسب، أبناء بر ابن قيس.[٣٥] وقد انفرد ابن أبي زرع بهذا النص، بحيث لم نعثر على مثيل له في المصادر السابقة، ولكن أهميته تكمن في مدى الإحساس الذي كان منتشرًا في صفوف قبائل زناتة بأنهم فرع من القبائل العربية هاجرت إلى المغرب منذ زمن مبكر، ولا يخفى الدور السياسي الذي أداه هذا الرأي في تكوين الدول ببلاد المغرب.

وقد تعرض هذا الرأي إلى النقد والتفنيد، من قبل مجموعة من النسابين والمؤرخين، فاعتبروها مجرد أوهام ليس لها سند تاريخي، وإنما هي من وضع الوضاعين. فابن حزم، الذي يعد من أوائل من بحث في هذا الإشكال، نفى أن يكون البربر من حمير أو ينحدرون من بر بن قيس، «فما علم النسابون لقيس عيلان ابن اسمه بر أصلا، ولا كان لحمير طريق إلى بلاد البربر إلا في تكاذيب مؤرخي اليمن».[٣٦] وهذا ما يتبناه ياقوت الحموي الذي ينفي بشدة، عن طريق عبدالله بن

صالح، أن يكون لقيس بن عيلان ولد اسمه بر مؤكدًا أنهم من الجبارين الذين قاتلهم داود وطالوت.[٣٧] كما نجد ابن خلدون يتبنى بدوره هذا الرأي، فقد تتبع كل الآراء ليخلص إلى نفي ذلك ويؤكد كل ما قاله ابن حزم، إلا أنه يستثني قبيلتي كتامة وصنهاجة حيث يرجع أصولهما إلى اليمن دون شك.[٣٨] أما مالك بن المرحل فقد حاول التوفيق بين هذه الآراء فانتهى إلى أن البربر «قبائل شتى من حمير ومضر والعمالقة وكنعان وقريش».[٣٩]

ابتداءً من القرن التاسع عشر، عرف هذا الموضوع نقلة نوعية مع المستشرقين الأوربيين، حيث نجد مجموعة مهمة منهم تحاول الإجابة عن أصل البربر، معتمدة هذه المرة على نتائج الأبحاث الأثرية والأنثربولوجية لتدعيم هذا الرأي أو ذاك. ويمكن تصنيف هذه الآراء إلى ثلاث مقالات:

المقالة الأولى: تؤكد على الأصل الشرقي للبربر، ودافعت المدرسة الألمانية عن هذا الرأي بقوة، والتي عملت على تدعيم الروايات التاريخية التي رأيناها سابقا بنتائج الأبحاث الأثرية. فهذا موفر (Movers) يؤكد أن البربر كنعانيون قدموا من فلسطين وهو ما ذهب إليه ديفيتا (A.Divitta)، وأسفرت أبحاث كالتيمنر (Kaltbmner) وريتر(Ritter) عن هندية أصلهم معتمدين على أسماء أماكن تنتشر عبر الهند وشرق إفريقيا ومصر، وقد افترضا أن البربر هم الذين أعطوها اسمهم عند مرورهم منها، أما الدكتور برثولون (Bertholon) فقد دافع بصرامة على الأصل الإغريقي الإيجي.[٤٠]

المقالة الثانية: أكدت على الأصل الأوربي وخاصة الفرنسي للبربر، وتُعَدّ المدرسة الفرنسية أهم معبر عن هذا الرأي، فقد استغلت جميع الوسائل الممكنة للتدليل على ذلك، وعلى رأسها نتائج الأبحاث الأثرية، فما أن تعثر على أثر في بلاد المغرب يشبه ما عُثر عليه في إحدى البلدان الأوربية، حتى تسرع في تأويل ذلك وإرجاعه إلى الأصل المشترك بينهما. فعندما اكتشف "الدولمن" Dolmen في بلاد المغرب، سارع الباحثون إلى ربط علاقة مع قرينه المكتشف في إسبانيا وفرنسا.. فهناك علاقة أخوية تربط بينهما لا يمكن إغفالها،[٤١] وإذا تم إثارة سؤال كيف وصل هذا النصب إلى المغرب؟ يكون الجواب جاهزًا، هو هجرة الإنسان الأوربي إلى شمال إفريقيا منذ زمن مبكر وتوطين الحضارة الميغاليتية هناك.[٤٢] فعلى هذه الطريقة الإلحاقية سارت جميع الأبحاث التي تعتمد نتائج حفريات ما قبل التاريخ، فكل ما اكتشف إلا له أصل سلتي وبالتالي فرنسي.[٤٣]

المقالة الثالثة: اعتمدت نتائج الأبحاث الأنثربولوجية والأركيولوجية لتحديد موقفها، بعيدا عن الآراء المسبقة والضلالات الإيديولوجية، فحاولت استنطاق المكتشفات لتقرر أن بلاد المغرب عرف استقرار الإنسان منذ حوالي (٣٠) ألف سنة قبل الميلاد.[٤٤] حيث عثر على بقايا الإنسان العاقل (Homo sapien) في كهوف قرب مدينة وهران والرباط، في دار السلطان، ويرجع زمنيًا إلى العصر الحجري القديم، وقد أطلق عليه اسم "الإنسان العثيري" وهو مزامن لإنسان (Gro-Magnon) الذي عُثر عليه في عدة مواقع في أوربا، ويعتقد باحثون كثر أن له علاقة ما بإنسان "مشتى العربي" الذي ظهر متأخرًا زمنيًا عن السابق،[٤٥] وقد اكتشفت بقايا إنسان "مشتى العربي" في عدة مناطق من بلاد المغرب، "وفي قسنطينة ، وفي مغارة "أفالو بورمال" على بعد ٣٠ كلم شرقي بجاية، وكذلك في الواجهة الأطلسية من المغرب الأقصى، وخاصةً في مغارة دار السلطان بالقرب من الرباط».[٤٦]

وقد اختلف العلماء في تحديد أصل هذا الإنسان، فمنهم مَنْ قال إنه قدم من أوربا، مارًا بإسبانيا وجبل طارق ليستوطن في المغرب وجزر الكناري، أما الآخرون فيؤكدون أنه جاء من المشرق. بيد أن كلا الطرفين لا يقدمان لنا دلائل كافية تؤكد مقولاتهما، فيبقى لنا الأصل المحلي الأكثر إقناعًا في غياب أي دليل يشير إلى قدومهما من خارج المنطقة.[٤٧] ويبدو أن هذا الإنسان لم يعرف تطورًا كبيرًا، إذ إنه سيختفي من المنطقة بشكل كبير دون أن ينقرض، مما حدا بكامبس إلى نفي كونه الجد الأعلى أو أصل الإنسان البربري.[٤٨]

وتزامن هذا الاختفاء مع ظهور إنسان جديد في المنطقة هو إنسان ما قبل متوسطي أو الإنسان القفصي، الذي عرف تطورًا كبيرًا، تدل على ذلك بقاياه وآثاره المنتشرة في المنطقة. وتجمع الأبحاث أن لا علاقة له بإنسان مشتى العربي الذي كان منتشرًا في الجهة الغربية من شمال إفريقيا، في حين إن الإنسان القفصي ظهر في الجهة الشرقية. وهذا ما دفع الانثربولوجيين إلى تتبع آثاره لمعرفة الجهة التي قدم منها، وبعد بحث طويل اتفق أغلب هؤلاء الباحثين أن هذا الإنسان قدم من المشرق العربي،[٤٩] وأنه يشكل أصل الإنسان البربري وأساسه، وأنهم أوائل البربر حسب تعبير كامبس (Camps).[٥٠]

إذا كان الإنسان القفصي حسب الباحثين الانثروبولوجيين قد عرف تطورًا وانتشارًا كبيرين في بلاد المغرب، فإن إنسان مشتى العربي لم ينقرض نهائيًا بل ظل موجودًا ومستمرًا بشكل من الأشكال خاصة في الجهة الغربية والجنوبية من شمال إفريقيا، وإن لم يستطع أن يجاري الإنسان القفصي في تطوره وانتشاره، وهذا ما دفع أحد الباحثين إلى القول إن «أصل الإنسان البربري خليط من إنسان محلي تطور في المنطقة، وإنسان طارئ قدم من الشرق الأدنى، ومكنت الهجرة من اندماجهما واختلاطهما فأنتجا الإنسان البربري».[٥١] وهذا ما يرفضه كامبس (Camps) مؤكدًا على أنهما لم يمتزجا في كتلة واحدة، رغم وجودهما في فترة تاريخية واحدة، حيث ظل إنسان مشتى العربي متميزا إلى اليوم عن الإنسان القفصي، ويذهب إلى القول إن إنسان "مشتى العربي" لا يمثل سوى نسبة ضئيلة من سكان المغرب،[٥٢] لذلك نفى أن يكون هذا الإنسان هو أصل البربر، وإنما يربطهم في الغالب الأعم بالإنسان القفصي أو ما يعرف بالإنسان المتوسطي الأول.[٥٣]

٢/٢- التنظيم الاجتماعي للسكان:

قام النسابة والمؤرخون العرب عند دراستهم للقبائل المغربية بتصنيف البربر إلى مجموعتين كبيرتين هما البتر والبرانس تنحدران من جد أعلى هو بر بن قيس، فولد بر مادغس وبرنس،[٥٤] فمادغس

المعروف بالأبتر هو جد البتر، أما برنس فهو جد البرانس، إلا أن هذا الرأي غير مجمع عليه فهناك من رأى أن البتر وحدهم أحفاد بر ابن قيس أما البرانس فمن كنعان.(٥٥) إن هذا التقسيم ناتج عن التشابه الكبير لنمط حياة القبائل البربرية مع نمط حياة القبائل العربية، لذلك لم يجد النسابة أدنى صعوبة في تقسيم قبائل البربر إلى جذمين عظيمين كما هو حاصل عندهم.[٥٦] وقد ظهرت آراء حاولت إعطاء تفسير جديد لأصل هذا التقسيم، فنجد مثلاً جوتييه يربط هذا التقسيم بنمط عيش هذه المجموعات، فيجعل البرانس السكان الأكثر تحضرًا، لأنهم اعتمدوا على الاستقرار في نمط عيشهم، أما البتر فهم البدو الرحل الذين اعتمدوا في نمط عيشهم على الترحال.[٥٧]

وقد ذهب جوتييه بعيدًا في التحليل عندما جعل العلاقة الصدامية بين الطرفين المدخل الأساس والمحرك الأول لتاريخ المغرب. ويتبنى حسين مؤنس هذا الرأي مع اختلاف طفيف في التفاصيل، فهو يرى «أن البربر ينقسمون إلى طائفتين متباينتين وهما طائفة الحضر الذين يسكنون النواحي الخصبة الشمالية والسفوح المزروعة، وطائفة البربر الرحل الذين يعمرون الصحاري والواحات التي تلي ذلك جنوبًا وشرقًا»،[٥٨] فبالرغم من مشاطرته لجوتييه الرأي في هذا التقسيم إلا أنه يرفض جعل كل البتر بدوا وكل البرانس حضرًا، كما يرفض جعل الاختلاف في نمط عيشهم مدخلاً أساسيًا لفهم تاريخ بلاد المغرب.

أما ويليام مرسيه فيفسر تسمية البرانس والبتر تبعًا لنوع من اللباس كان منتشرًا في المغرب. فالعرب عندما دخلوا المغرب لاحظوا اختلافًا في زي قبائل البربر: فمنهم مَنْ كانوا يرتدون البرنس الطويل أو البرنس الذي له غطاء الرأس، وهؤلاء أطلق عليهم اسم البرانس (جمع برنس)، ومنهم من كانوا يلبسون هذا الرداء دون غطاء للرأس، وهؤلاء أطلق عليهم العرب البتر (جمع أبتر، بمعنى الناقص أو المقطوع).[٥٩] إن هذا الرأي الذي تبناه مرسيه ليس له أي سند أو دليل تاريخي يدعمه، وإنما اعتمد في تأويله على مشاهدته العينية، مما يضعف موقفه هذا، على عكس جوتييه الذي يمكن أخذ موقفه بعين الاعتبار، حيث نجده معتمدا على ابن خلدون الذي كان أول مَنْ أشار إلى إشكالية البداوة والحضارة وتأثيرها في تاريخ المغرب وإن لم يذهب إلى حد اعتبارها المحرك الأساسي له.

ويبقى أن التفسير القائم على النسب هو الراجح، بحكم أن العرب كلما اختلطوا بشعب إلا وحاولوا البحث عن نسبه وأصله وإرجاعه إلى جد أعلى، كما هو حاصل عندهم، ونظرًا للتقارب الشديد القائم بين مجتمعهم القبلي والمجتمع القبلي البربري، فإنهم لم يجدوا أدنى صعوبة في مماهاة التصنيف العام للبربر مع ما كان حاصلاً لديهم منذ وقت مبكر. وفي الأخير نشير إلى أن ابن خلدون قد قام بتصنيف جميع القبائل التي تنضوي تحت هذين الجذمين العظيمين، فقسم البرانس إلى سبع قبائل: أوربة وصنهاجة وكتامة ومصمودة وعجيسة وأوريغة وازداجة، وزاد سابق المطماطي وغيره ثلاث قبائل أخرى وهي لمطة وهسكورة وجزولة. وأما البتر فينقسم شعبهم إلى أربع قبائل وهم: ضريسة (تنحدر منها قبائل زناتة) ونفوسة وأداسة وبنو لوى وهم لواتة.[٦٠] وقد تناوب على حكم المغرب قبائل من كلا الجذمين، فنجد المرابطين من صنهاجة والموحدين من المصامدة وكلاهما من البرانس، ثم المرينيين وقبلهم المغراويين وهؤلاء من البتر.

المبحث الثالث:

التنظيم الديني لبلاد المغرب

إن الحديث عن الديانات في بلاد المغرب قبل الفتوحات العربية الاسلامية يحيلنا تلقائيًا إلى المسيحية، ليس لأن المنطقة لم تعرف غيرها، ولكن بحكم أنها أكثر الديانات التي عرفت انتشارًا مهمًا فيها،[٦١] ولمساهمتها بشكل كبير في التطور التاريخي للمنطقة، إلى جانب المكانة الرمزية التي كانت تحتلها في تاريخ الديانة المسيحية، إذ أنجبت قساوسة كثر لهم مكانة مقدسة في العالم المسيحي، ويكفي أن نذكر أغسطين الذي يُعَدّ أهم رجل دين نافح عن الديانة المسيحية في وجه الملاحدة والمنشقين وكذا أتباع الديانات الأخرى،[٦٢] وكذلك القديس ترتوليان والقديس سبير الذين كانت كنائسهم مزارًا للمسيحيين.[٦٣]

فقد دخلت المسيحية إلى شمال إفريقيا في القرن الثاني الميلادي، حيث بدأ المبشرون بالدعوة إلى هذا الدين الجديد، ووجدت لها أتباعًا منذ البداية. بيد أن القمع سرعان ما لاحقهم، حيث استشهد العديد منهم تحت التعذيب أو الإعدام المباشر، وقد ساهم هذا التنكيل في زيادة المتعاطفين والمؤيدين لهذه الديانة، وهذا ما يؤكده أغسطين عند حديثه حول هذه الفترة قائلا «إن أرض إفريقية مملوءة بأحباء القديسين الشهداء».[٦٤] فالمكانة الاعتبارية التي تحتلها المسيحية في شمال إفريقيا جاءت من هنا، حيث كان سكان شمال إفريقيا من أوائل من اعتنقوا هذه الديانة ودفعوا من أجلها ثمنًا غاليًا. لكن هذا التنكيل سيزول لاحقا مع اعتناق الإمبراطورية الرومانية للمسيحية، حيث ستعمل على توفير جميع الإمكانيات لأتباعها من أجل العمل على نشرها والتمكين لها في الإمبراطورية، إلى أن أصبحت محسوبة كليا على الخط الجغرافي الذي تهيمن فيه المسيحية.

إن هذا التجانس الذي حصل بين الإمبراطورية والمسيحية خدم الطرفين كثيرًا، إلا أنه ما لبث أن انعكس سلبًا عليهما، ذلك أن هذه الديانة ما لبثت أن عرفت انشقاقات وخلافات عقدية كان يزيد من حدتها اعتناق الأباطرة هذا المذهب أو ذاك، ومحاولة فرضه بالقوة، وتحولت هذه الانشقاقات في بعض الأحيان إلى ثورات اجتماعية وسياسية،[٦٥] هددت وحدة الإمبراطورية وأدخلتها في صراعات عنيفة ساهمت بشكل كبير في إضعافها وانهيارها أمام الزحف الوندالي، الذي فرض سيطرته على شمال إفريقيا وأدخل معه مذهبه الديني الأريوسي إلى المنطقة، مما زاد في حدة الانقسامات حيث عمل الحكام على نشره بالقوة وفي الوقت نفسه اضطهاد وملاحقة أتباع الكنيسة الكاثوليكية ومصادرة ممتلكاتها.[٦٦]

وعندما أعاد الروم البيزنطيون شمال إفريقيا إلى سيطرتهم، قاموا بعملية مضادة، حيث رسموا المذهب الكاثوليكي، وأعادوا فتح الكنائس التي أغلقها الوندال وأرجعوا لها جميع ممتلكاتها.(٦٧) ورافق هذه العملية اضطهاد شامل لأتباع المذهب الأريوسي،(٦٨) وامتد إلى المشركين والدوناتيين وحتى اليهود، الذين اضطروا إلى اللجوء إلى القبائل بعدما فصلوا عن جميع الوظائف العمومية سنة ٥٣٥م.(٦٩)

ومن الغريب أن هذا الانتعاش الكنسي لم تستفد منه السلطة البيزنطية كثيرًا، ذلك أن مسيحيي المنطقة كانت عيونهم وقلوبهم معلقة بالبابوية في روما، وليس إلى الكنيسة الشرقية التي كانت مهيمنة في القسطنطينية، ويعود الفضل في ذلك للبابا جريجوري الأكبر، الذي عرفت في عهده الكنيسة الغربية انتعاشًا كبيرًا، فقد عمل جاهدًا على دعم الكنيسة في شمال إفريقيا والتغلغل في أوساط القبائل البربرية، «ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة البيزنطية قد أخذت تنسحب رويدا من المواقع الداخلية، فقد كان القساوسة يحلون محل الحكام، حتى أصبحوا -على مر الأيام- حماة الضعفاء والمظلومين فلم يعد هؤلاء يتوجهون إلى القسطنطينية لبث ظلاماتهم، وإنما إلى بابا روما فهو أقرب إليهم»،(٧٠) فدخل المغرب بذلك في ما يشبه ازدواجية السلط، السلطة السياسية في القسطنطينية والسلطة الروحية في روما. وقد زاد من تفاقم هذا الوضع تدخل الأباطرة في الصراعات العقدية، كان آخرها مناصرة الإمبراطورة "مارتينيه" -التي كانت وصية على ابنها هرقل الصغير(٧١) للمذهب المونوثيلي، وما تبع ذلك من اضطهاد لباقي المذاهب الأخرى.

وقد عارض الناس في شمال إفريقيا هذا المذهب، وذلك بزعامة الراهب مكسيم(٧٢) الذي كان يحظى باحترام كبير من قبل مسيحيي تلك الفترة، وما لبث أن أعلنها مدوية بأن «الله لن يرضى عن الإمبراطورية الرومانية مادام هرقل وآله على عرشها"،(٧٣) ووجد في حركته هاته مساندة قوية من قبل البابوية، التي كان يكن لها الاحترام الشديد، وكذا من قبل حاكم إفريقية جريجوريوس، فقد ساهم هذا الأخير بدور كبير في تقوية هاته الحركة، التي ستشكل القاعدة الصلبة لحركته الانفصالية عن السلطة المركزية، وقد «حدث ذلك عندما اعتلى قسطانس الثاني (Caustant) العرش سنة ٦٤٥ وكان متهما بالقول بالإرادة الواحدة، حيث لم يجد مكسيموس صعوبة في دفع أغلبية الأهالي والقبائل البربرية إلى الثورة ضد الإمبراطور، لفائدة جريجوريوس خاصة وأنها كانت على استعداد دائم لمناهضة السلطة المركزية".(٧٤) فكان هذا الانفصال محصلة التراكم التاريخي للصراع والشقاق داخل المسيحية، استفاد منه في النهاية حاكم المنطقة.

في الأخير تجب الإشارة إلى: أن التركيز على المسيحية ليس لأنها كانت مهيمنة كلية على المنطقة، وإنما للدور الذي أدته في مسار الحضارة الرومانية. فالثابت لدى المؤرخين أن المسيحية في عز قوتها لم تستطع أن تكتسح كل المغرب حيث ظلت بعض الديانات منتشرة، مثل اليهودية التي دخلت إلى المغرب مع "الفينيقيين"، واعتنقتها بعض القبائل مثل «جراوة قبيلة الكاهنة القوية، وكذلك فعلت جماعات من نفوسة في طرابلس حيث ظلت هذه المجتمعات باقية في العهود الإسلامية بعد الفتح»،(٧٥) وقد تعرض اليهود للتعذيب والمضايقات الكثيرة إبان الفترة الرومانية والوندالية والبيزنطية، لإجبارهم على التنصر،(٧٦) وعلى العموم ظلت اليهودية دينا على الهامش، حيث لم تستطع أن تستقطب شريحة مهمة من سكان شمال إفريقيا، فظلت معزولة في إطار مجموعات متفرقة ومنعزلة.

أما الوثنية فقد عرفها سكان المغرب الأقدمون، حيث كانوا يقدمون القرابين للآلهة، نذكر منها: "الإله ماكورنا، ويوتا، وماكورفوس، وماتيلا، وقد اهتم الفينيقيون ببناء المعابد للإله تاميت، كما كانت عبادة الشمس والقمر وغيرهما من الظواهر الطبيعية منتشرة في أوساط واسعة، إضافة إلى عبادة الأشجار والحيوانات وتقديس الملوك ورؤساء القبائل».(٧٧) ونجد البكري يذكر عدة نماذج لعبادات وثنية كانت منتشرة في المنطقة، من قبيل صنم من الحجارة كانت بعض القبائل المنتشرة في منطقة طرابلس تقدم له «القرابين ويستشفون به من أدوائهم ويتبركون به في أموالهم».(٧٨)

الخلاصة:

خلاصة القول؛ إن المنطقة عرفت ديانات متعددة يمكن تصنيفها إلى صنفين: وثنية وتوحيدية، وإن كانت عرفت أكثر بالديانة المسيحية، التي أدت دورًا مهمًا وخطيرًا في مرحلة ما قبل الإسلام، وهو الدور الذي أرخى بظلاله على المستوى السياسي.

الهوامش:

(*) يمكن الرجوع بهذا الصدد إلى كل من: عبد العزيز غوردو، **الفتح الإسلامي لبلاد المغرب – جدلية التمدين والسلطة**، ط.٢، دار ناشري للنشر الإلكتروني، الكويت، ٢٠١١، ص٩ وما بعدها؛ ومحمد القبلي، **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٧، ص. ٩-١١.

(١) حسين مؤنس، **فتح العرب للمغرب**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ص١.

(٢) شارل جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ج١، الدار التونسية للنشر ١٩٧٨، ص١٩٨.

(٣) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٢.

(٤) البلاذري، **فتوح البلدان**، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت ١٩٨٧م-١٤٠٧هـ، ص: ٣١٦. ابن عبد الحكم، **فتوح مصر والمغرب**، تحقيق د. علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م، ص: ١٩٩.

(٥) البلاذري، المصدر السابق، ص: ٣١٧.

(٦) عبد الملك ابن حبيب، **كتاب التاريخ**، تحقيق خورخي أغوادي، مدريد ١٩٩١، ص١١١.

(٧) أبو عمر خليفة بن خياط، **تاريخ خليفة بن خياط**، تحقيق د. مصطفى فواز، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ص: ٩٢.

(٨) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص: ٢.

(٩) مثلاً نجده عند ابن خياط في قوله: «وكتب معاوية بن أبي سفيان إلى مروان بن الحكم، وهو عامله على المدينة أن ابعث عبد الملك بن مروان على بعث المدينة إلى بلاد المغرب»، **تاريخ ابن خياط**، ص ١٢٩. وعند الطبري: «وفيها -أي سنة خمس وعشرين- توجيه عبد الله بن سعد بن أبي سرح الخيل إلى المغرب» **تاريخ الأمم والملوك**، مجلد ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٥٩٤. أما عند البلاذري فنجد: «لما ولي عبدالله بن سعد بن أبي سرح مصر والمغرب بعث المسلمين في جرائد»، **فتوح البلدان**، ص: ٣١٧. ابن عبد الحكم: «وأراد عمرو أن يتوجه إلى المغرب، فكتب إلى عمر بن الخطاب» **فتوح مصر والمغرب**، ص: ١٩٩.

(١٠) ابن خياط، المصدر السابق، ص: ١٢٩.

(١١) الرقيق القيرواني، **تاريخ إفريقية والمغرب**، تحقيق عبدالله الزيدان وعزالدين موسى، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٠، ص: ٧٥.

(١٢) ابن عذاري، **البيان المغرب**، م١، تحقيق ليفي بروفنصال، دار الثقافة، بيروت، ص:٤٧.

(13) E.F. Gautier : les siècles obscurs du Maghreb, Payot Paris, première tirage, 1927, p. 103-104.

(14) Ibid, p.114.

يدافع جوتييه بشدة عن بقاء التأثير الفينيقي على المنطقة حتى فترة الإسلام، ويؤكد أن استحضار هذا البعد ضروري جدا لتفسير انتشار الإسلام والعربية في المنطقة واندحار المسيحية منها كلية.

Gautier, Op. Cit, p.98, 104,122

(١٥) البكري، المصدر السابق، ص: ١٧٨.

(16) Jean servier, les Berberes, 4e édition, Paris 2007, p. 7.

(17) Bel Alfred, la religion Musulmane en Berbérie, T1, p. 65.

(١٨) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبدالسلام هارون، دار المعارف، ط٦ ١٩٩٩، ص: ٤٩٥.

(١٩) ابن خلدون، **كتاب العبر**، م. ٦، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الثانية ٢٠٠٣، ١٤٢٤، ص: ١٠٤، الناصري، **كتاب الاستقصا**، ج١، منشورات وزارة الثقافة المغربية، ٢٠٠١، ص:٦٨.

(٢٠) الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، طبعة ثانية، ١٩٨٣، ص: ٢٧. يجب التذكير هنا أن أصل الكتاب مفقود والمعتمد هنا فقط ترجمات الكتاب التي بقيت منتشرة، ومنها ترجمت إلى العربية، وسيكون العثور على الأصل ذا أهمية قصوى لدى الباحثين.

(21) Encyclopédie de l'Islam, Tome I, 3ème édition, G .P Maisonneuve, 1991, p.1208.

(22) G. Camps, les berbères : mémoire et identité, seconde édition, 1987, p. 15.

(٢٣) محمد حقي، **البربر في الأندلس**، طبعة أولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، الدار البيضاء، ص: ١٦.

(24) Jean servier, les berbères, quatrième édition 2007, p. 11.

(25) Camps, les berbères, p. 13, Camps et autre, Islam société et communauté, sous la direction de Ernest Gellnes, Edition du centre nationale de la recherche scientifique, Paris, 1981, p. 9. Et Ernest mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale, Tome Premier, 1888, pXXII

(٢٦) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، ص:١٩٧. ولابن القاضي رواية مشابهة مع اختلاف طفيف فيذكر أن «سبب نزول البربر في أرض فاس والمغرب وإتيانهم من أرض فلسطين من أرض الشام أن ملكها جالوت لما قتله نبي الله داود ومَلَكَ البربر أمر بإخراجهم من بلاد كنعان وفلسطين وأمر بجلائهم إلى جزيرة المغرب فساروا نحو إفريقية ونحو الزاب حتى ضاقت بهم تلك البلاد وامتلأت منهم الجبال والكهوف والرمال، وكانوا على أديان مختلفة وانتهوا إلى البحر الأندلسي، وكانت البلاد قبل البربر للروم فلما دخلها البربر فر الروم أمامهم إلى صقلية.. ثم رجع الروم إلى مدائنهم على صلح من البربر إذ كرهت البربر نزول المدائن فنزلوا الجبال والرمال لكونهم أصحاب إبل وبقر وسكان بيوت أدم وشعر، فعادت المدن رومية والجبال والصحاري بربرية»، أحمد بن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط ١٩٧٣، ص:١١.

(٢٧) البكري، **المسالك والممالك**، المجلد الأول، ص: ٢٤٩.

(٢٨) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، المجلد الأول، دار صادر، بيروت، ١٩٧٧، ص٣٦٨.

(٢٩) ابن خلدون، **كتاب العبر**، م. ٦، ص: ١١٣.

(٣٠) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٩٩، ص٤٩٥.

(٣١) البكري، المصدر السابق، ص: ٢٤٩. وفي هذا الإطار يورد صاحب كتاب مفاخر البربر قصيدة ليزيد بن خالد الطنبي يمدح البربر وينسبهم إلى قيس فيقول:

أيها السائل عن أصولنا ... قيس غيلان بني العز الأول

نحن ما نحن بني بر الندى ... طراد الأزمان نحار الإبل

وبنو بُر بن غيلان الذي عرف ... المجد وفي المجد وجل

وارتدى سيف المجد هلا ... وبرودا واكتسى منها حلل

وابتنى المجد وأورى زنده ... وكفى كل ذي خطب جلل

إن قيس تعتزي بربها ... وببر تعتري قيس أجل

ولنا الفخر بقيس أنه ... جدنا الأبتر فكاك الإبل

إن قيسا قيس غيلان هم ... معدن الحق على الخير دلل

حسبك البربر قومي أنهم ... ملكوا الأرض بأطراف الأسل

وبيض تحمل السهام بها ... بأيدي من كان على الحق نكل

أبلغوا البربر عني مدحا ... حيك من جوهر شعر منتحل

أبي علي صالح بن عبد الحليم الإيلاني، **مفاخر البربر**، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، ط٢، ٢٠٠٨، ص: ١٩٧.

(٣٢) ابن خلدون، المصدر السابق، ص: ١١٠.

(٣٣) ابن أبي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢م، ص١٤.

(٣٤) ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص١٧.

(٣٥) أما نص الكتاب فهو" باسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما شهد به أنجاد قيس عيلان لإخوانهم زناتة بن بر بن قيس عيلان أنا أقررنا لكم وشهدنا على أنفسنا وعلى آبائنا وأجدادنا أنكم معشر زناتة من ولد بر بن قيس ابن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فأنتم والحمد لله إخواننا نسبا وأصلا، ترثوننا ونرثكم، نجتمع في جد واحد، وهو قيس عيلان، فلكم ما لنا، وعليكم ما علينا، لم نزل نعرف ذلك ونتوارث علمه وصحته عن آبائنا ومشايخنا وأهل العلم بالتاريخ والمعرفة بالأنساب منا، يأخذه كابر عن كابر، وعادل عن عادل فليعرفوا ذلك ويلزموا أنفسهم وأموالهم معرفته امتثالاً لقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ واقتدوا بقوله (ﷺ) «واتقوا الله وصلوا الأرحام»، وقد قال (ﷺ)، حين خطب في حجة الوداع: أيها الناس اتقوا الله وصلوا أرحامكم، واحفظوا أنسابكم، والله على ما نقول وكيل». ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص:١٧

(٣٦) ابن حزم، المصدر السابق، ص: ٤٩٥.

(٣٧) ياقوت الحموي، معجم البلدان، م١، ص: ٣٦٨.

(٣٨) ابن خلدون، المصدر السابق، ص: ١١٣.

(٣٩) نفسه، ص: ١٠٩.

(٤٠) محمد حقي، **البربر في الأندلس**، ص: ١٩.

et Camps, Les Berbères, p. 21.

(41) Ernest Mercier, Histoire de l'Afrique septentrionale, tome premier, Paris, 1888, p. 23.

(42) Camps, Les berbères, p. 22.

(43) Camps, l'origine des berbères, in « Islam société et communauté », édition du centre national de la recherche scientifique, Paris, 1981, p. 9.

(٤٤) محمد حقي، **البربر في الأندلس**، ص: ٢٠.

(45) Camps, L'origine des berbères, p. 21.

(٤٦) شارل جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ج١، ص: ٤٧.

Charles andré Julien, histoire de l'Afrique blanche, Presse Universitaires de France, Paris 1966, p.11.

(47) Camps, Les berbères, p. 26.

(48) Ibid. p. 28.

(49) Camps, op.cit, p. 29.

(50) Camps, l'origine des berbères, p. 25.

(٥١) محمد حقي، المرجع السابق، ص: ٢١.

(52) Camps, Les berbères, p. 29.

(٥٣) عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج١، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط٦، ٢٠٠٠، ص: ٤٣.

(٥٤) ابن حزم، **جمهرة أنساب العرب**، ص: ٤٩٥.

(٥٥) خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج١، ص: ٧١.

(٥٦) محمود شيت الخطاب، **سكان المغرب العربي**، مجلة الفكر الإسلامي، عدد(٢)، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، بيروت، ص٤١.

(57) Gautier: les siècles obscurs, p. 216.

(٥٨) حسين مؤنس، **فتح العرب للمغرب**، ص: ٦.

(٥٩) نقلاً عن: سعد زغلول، **تاريخ المغرب العربي**، ج١، منشأة المعارف بالإسكندرية، مصر ١٩٩٥، ص: ٩٠.

(٦٠) ابن خلدون، **كتاب العبر**، م٦، ص. ١٠٥.

(61) Georges Marçais, la berbèrie musulmane, édition Afrique orient 1991, p. 35.

(٦٢) شارل جوليان، المرجع السابق، ص: ٣٠٤. كذلك

J.J.E. Roy, histoire de l'Algérie, troisième édition, p. 76.

(٦٣) سير توماس أرنولد، **الدعوة إلى الإسلام**، ص١٤٣.

(٦٤) شارل جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ج١، ص ٢٥٥.

(٦٥) شارل جوليان، المرجع السابق، ص ٢٩٦.

وتُعَدّ الحركة الدوناتية أهم معبر عن هذه الظاهرة، فكانت بدايتها خلافًا حول انتخاب كاسيليانوس كبير الأساقفة في قرطاج، حيث رفض ذلك مجموعة من القساوسة على رأسهم دوناتوس الأكبر، بيد أن الأمور تطورت بعد أن ساند الإمبراطور قسطنطين، القس الجديد، وإعلانه خروج دوناتوس وأتباعه عن القانون، وباشرت أجهزة السلطة عملية قمع ممنهجة ضد الدوناتيين ما نتج عنه التفاف الغاضبين حول الحركة وإعلانهم التمرد على الدولة، وتصادف ذلك ظهور حركة الدوارين فوقع نوع من التحالف مؤقت بينهما وأصبحت هذه الحركة معبرة عن جميع الساخطين على الدولة. شارل جوليان، ص: ٢٩٨. سعد زغلول، **فتح المغرب العربي**، ص: ١١٨، محمد المبكر، **شمال إفريقيا القديم**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، ط١، ٢٠٠١، ص٢٠٣.

(66) François Decret, le christianisme en Afrique du nord ancienne, édition du seuil, Paris, 1996, p. 255.

(67) François Decret, op.cit, p. 259.

(٦٨) سعد زغلول، **تاريخ المغرب العربي**، ج١، الإسكندرية، ١٩٩٣، ص١٢٣.

(٦٩) شارل جوليان، المرجع السابق، ص:٣٧٢، جان كلود شينيه، **تاريخ بيزنطية**، ترجمة جورج زناتي، سلسلة نصوص، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، ط١، ٢٠٠٨، ص: ٣٠.

(٧٠) حسين مؤنس، **فتح العرب للمغرب**، ص: ٣٧.

(٧١) حسين مؤنس، **فتح العرب للمغرب**، ص: ٤٥.

(٧٢) نفسه، ص: ٤٦.

(٧٣) شارل جوليان، المرجع السابق، ص: ٣٨١.

(٧٤) نفسه، ص: ٣٨٢.

(٧٥) د. عبد الواحد ذنون طه، **الفتح والاستقرار العربي في شمال إفريقيا والأندلس**، الطبعة الأولى ٢٠٠٢، دار المدار الإسلامي، بيروت، ص: ٤٨.

(76) J.T. aieb, encyclopédie berbère V16, Edisud, France, p. 3947.

(٧٧) ناطق صالح مطلوب، **تاريخ المغرب العربي**، المدار الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٤، ص: ٢٨.

(٧٨) البكري، **المسالك والممالك**، مجلد٢، ص: ١٨٤.